محاضرات مقياس الأدب المقارن

الأستاذ: عدنان فوضيل

المحاضرة رقم 01/ المفهوم والنشأة والتطور

مدخل:

يتوجب قبل خوض الحديث عن الأدب المقارن أن يتبين الدارس أوّلا حدود المصطلح، وكذا النطق الصحيح لاجتماع مصطلحي الأدب والمقارن، فلو تمعّنا في مصطلح المقارن سنجد أنّ معظم الدارسين يخطؤون في تهجئته وذلك بتكسير حرف "الراء"، ومنه لا يصح إسناد الفعل (المقارنة) إلى الأدب، بل يتوجب عكس ذلك نحو القول بأنّ كلمة " الأدب " هنا هي من يقع عليها فعل المقارنة، لذلك يتوجب " قلب الكسرة في حرف الراء إلى فتحة" ليستقيم الكلام.

يبدأ الإشكال إذا في (التسمية)، التي بدت ملتبسة إلى حدّ كبير، فكثيرا ما يقع القراء في الخلط بين مجال الأدب وبين مجال دراسة الأدب، لأنّ تسمية هذا الحقل بـ (الأدب المقارن) قد يوحي للبعض أنّه نوع من الأنواع الأدبية، كأن نقول مثلا (أدب رومانسي) أو (أدب واقعي) أو (أدب بوليسي)... إلخ. أضف إلى ذلك أنّ

لفظة (مقارن) هي لفظة مبهمة، تثير – على حدّ تعبير رينيه ويليك (1903 – 1995) المتاعب دون شك. (01)

في مرحلة ثانية يتوجب على الباحث أن ينطلق من أسئلة جوهرية وأساسية والتي تسمح له بفهم هذا العلم:

أوّلها: ما هو الأدب المقارن (الماهية)؟

ثانيا: ما هي مجالات بحوثه وميادينه؟

يستند معظم الباحثين العرب على تعريف للباحث العربي " غنيمي هلال" بوصفه من بين الأوائل ذين خاضوا في نقل معظم الدراسات المقارنة الغربية إلى اللّغة العربية، وهو التعريف الذي ينظر إلى الأدب المقارن بأنّه " دراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب الخارجية عن نطاق اللّغة القومية التي كتب بها"[1]

فبالرغم من أنّ المصطلح في ظاهره يوحي بالبساطة، إلاّ أنّه كغيره من المصطلحات المعرفية، لم يجر الاتفاق حول تعريف جامع له، والغالب أنّ المشتغلين في هذا الحقل، اتفقوا في العموم حول صعوبة تعريفه، أوّلا كمصطلح، وثانيا صعوبة تحديد مجاله المعرفي؛

[1])- غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط5، دار العودة، بيروت، 1981، ص 6.

بمعنى معرفة ما هي الموضوعات التي يختص بها الأدب المقارن دون غيره من حقول دراسة الأدب.

فالمقارنة هي في الأصل" نمط من أنماط آلية عمل العقل البشري، وهي ضرورية من أجل تقدم المعارف"[1]، فهي منهج استخدمه علماء ينتمون إلى تخصصات علمية دقيقة، مثل علم التشريح المقارن، علم الفيزيولوجيا المقارن، فقد" نجم عن الاعتراف بأهمية هذه العملية الفكرية، ظهور العديد من العلوم القائمة على مناهج مقارنة، ضمن تصور دينامي، كشفي الجوهر"[2]، وهذا قبل أن تجد اللفظة متأخرة طريقها إلى الحقل الأدبي، ولذا، لم يرد ذكرها في كتب تاريخ الأدب إلاّ حديثاً.

تاريخيا يصعب تحديد متى وأين اُستعملت لفظة المقارنة لأوّل مرة في حقل الأدب. والواضح أنّ حتى هذه التواريخ الافتراضية، اختلفت من بلد أوروبي إلى آخر. ويُقال أنّ لفظة المقارنة قد وردت بشكل عابر في إحدى مسرحيات وليام شكسبير، وعلى لسان شخصية من شخصياته. لكن هذا لا يبدو مُحفّزا لاعتباره حدثا تاريخيا مهما في

[1]- أيف شيفريل، الأدب المقارن، تر: محمد محمود، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، لبنان، 2013، ص 5.

[2]- المرجع نفسه، ص 5.

نشوء هذه اللفظة أدبيا. غير أنّه في عام 1598، ظهر كتاب بعنوان مُلفت (بحث مقارن في شعرائنا الإنجليز والشعراء اليونانيين واللاتينيين والايطاليين) للكاتب (فرانس ميرز).

يُعتبر ماثيو آرنولد أوّل من استعمل استعمالا تخصصيا وواعيا لفظة (المقارن) في اللغة الإنجليزية عام 1848. غير أنّ الفرنسيين كانوا الأسبق، حسب سوزان بانست، إذ هناك شبه اتفاق بأنّ لفظة المقارن قد وردت في المقررات الدراسية في مجال تدريس الأدب تحت عنوان عريض (مقرّر في الأدب المقارن) ويعود هذا إلى سنة 1812.

وقبل هذا التاريخ، صدر كتاب لكوفييه بعنوان (التشريح المقارن) عام 1800، والذي هو بمثابة المرجعية التأسيسية لإبراز مصطلح (الأدب المقارن). في حين أنّ الانطلاقة الحقيقية لحقل الأدب المقارن، كانت على يد (فرانسوا فيلمان) حينما " قدم في صيف 1828 مجموعة من الدروس حول الأدب الفرنسي تحت عنوان (دروس في الأدب الفرنسي)، وقد طبعت هذه الدروس في عامي 1828-1829 ضمن كتاب واحد بنفس العنوان، عالج فيه الأثر الفرنسي في إيطاليا خلال القرن الثامن عشر، وقد ذكر في مقدمة كتابه اصطلاح الأدب المقارن أو المقارنة الأدبية وبعد ذلك راج هذا

المصطلح في الدراسات اللاحقة" [1]، حيث أورد في هذه الدراسة مجموعة من المصطلحات الأساسية، مثل: الصورة المقارنة، دراسات مقارنة، تاريخ مقارن، أدب مقارن.

وبعد عام من صدور هذه الدراسة ألقى (جان جاك أومبير) محاضرة في ثانوية مارسيليا عام 1830 بعنوان (التاريخ المقارن للفنون والآداب عند الشعوب كلها)، أمّا عن " أوّل كتاب تربوي فرنسي في هذا المجال هو (الأدب المقارن) 1931 لبول فان تيغم"[2]

الأصول والتأسيس:

"المعروف أنّ فرنسا هي منشأ الأدب المقارن، وأنّ "فيلمان" كان أسبق من غيره في استخدام المصطلح، وذلك من خلال المحاضرات التي ألقاها عام 1828م حول علاقة الأدب الفرنسي مع الآداب الأوروبية".

قدم فيلمان في محاضرته العامة في السوربون عام 1828 – 1829 موضوعا حول تأثير إنكلترا على فرنسا، وبفضل هذا العمل أصبح ممكنا معرفة "ما تلقته

[1]- عز الدين المناصرة، مقدمة في نظرية المقارنة، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، دط، د س، ص 9.

[2]- نفس المرجع، ن ص.

الروح الفرنسية من الآداب الأجنبية وما أعطته لها". مع فلمان بدأ مشوار طويل مع الأساتذة الذين سيعرّفون بالآداب الأجنبية في فرنسا، مثل آداب الشمال والجنوب، وسيعملون على مقارنتها بالأدب الفرنسي".

وحسب سانت بوف فالأدب المقارن وُلد عام 1830 في ثانوية مارسيليا، عندما ألقى جان جاك اومبير محاضرة بعنوان "**التاريخ المقارن للفنون والآداب عند الشعوب كلها**". ويقول هنري باجو أن أومبير اكتشف الأدب المقارن دون أن يعلم. ثم يقول ": "هكذا أخذ نوع جديد من البحث طريقه إلى الولادة في فرنسا في سنوات ظهور الرومانسية والليبرالية"، وقد " افتتح جان جاك أمبير برنامجا مقارنا بعنوان " عن تاريخ الشعر" مركزا على مجموعة من العناصر التي تكوّن منهجه في المقارنة"[1]

وقد أعلن في محاضرته أنه إذا كان الأدب علما فإنه ينتمي إلى التاريخ والفلسفة على السواء. وقد قال جملته الشهيرة: " سوف نقوم – أيها السادة - بهذا الدرس المقارن الذي يظل تاريخ الأدب بدونه ناقصا؛ وإذ رأينا – على مدى ما يحملنا إليه من مقارنات – أنّ أدبا أجنبيا يفوقنا في بعض النقاط

[1]- أيف شيفريل، مرجع سابق، ص 12، بتصرف.

فسوف نعترف بذلك التفوق ونعلنه دون تحيز. إنّ لدينا من المجد ما يغنينا عن حسد مجد الآخرين، ولدينا من الكبرياء م يمنعنا من أن نكون عادلين".

ظهر الأدب المقارن على يد عدد من الأدباء والباحثين الفرنسيين الذين آمنوا بالإنفتاح، وينكرون كل نزعة إلى الانغلاق والانعزالية، ونذكر على سبيل المثال: جان جاك أمبير، سانت بوف، جوزيف تيكست.

ومع بداية القرن العشرين شهد تأسيس "الوعي النظري لمنهج الأدب المقارن"، واعترفت به الجامعات الفرنسية والأمريكية، وأهم من طوّر هذا الوعي نذكر: "فان تيغم"، جان ماري كاريه، ماريوس فرانسوا جويار...إلخ الذين أنشأوا أول وأشهر مدرسة مقارنة في العالم ألا وهي المدرسة الفرنسية.

شهدت بدايات القرن التاسع عشر تعدد العلوم التي تسعى إلى ممارسة التحليل المقارن: "علم التشريح المقارن"، "الفيزيولوجيا المقارنة"...إلخ

يعود الفضل لتطور المنهج المقارن إلى العلوم الطبيعية، حيث أنّ " مقارنة البنى و الظواهر المتشابهة المبعثرة بشكل ما في المجموعة التي تنتمي إليها لإبراز خصائص مشتركة، ومن ثم استخلاص القوانين، أمر قديم". قال بوفون: " لو

لم توجد الحيوانات لكانت معرفتنا بالإنسان أقل". فعلم " التشريح المقارن للحيوان" هو أول دليل على وجود هذا العلم الجديد.

التعريف والماهية:

تعددت التعاريف:

1- دراسة الأدب الشفوي وبخاصة موضوعات القصص الشعبي وهجرته، وكيف ومتى دخل حقل الأدب الفني.
2- دراسة الصلات الأدبية بين أدبين قوميين أو أكثر.
3- الأدب المقارن فرع من فروع التاريخ الأدبي، لأنه يدرس العلائق الروحية الدولية، والصلات الواقعية التي توجد بين أديبين.
4- يهتم الأدب المقارن بمجالات عديدة: الأبحاث اللغوية، دراسة الأجناس الأدبية، الموضوعات الأدبية، الأساطير، المصادر الأدبية، المذاهب الأدبية والتيارات الفكرية...إلخ

عرّف "جويار" الأدب المقارن بأنه "تاريخ العلاقات الأدبية الدولية. من هنا أنّ الباحث المقارن يتوقف عند الحدود اللغوية أو الوطنية ويراقب تبادل

المواضيع والأفكار والكتب والمشاعر بين أدبين أو أكثر. ومن هنا أنّ طريقة عمله يجب أن تنطبق على تنوع أبحاثه".[1]

أما "فان تيغم" فيرى أنّه ذلك العلم الذي يدرس على نحو خاص آثار الآداب المختلفة، في علاقاته المتبادلة، ويعرفه بقوله: " الأدب المقارن بالمعنى الأصلي للكلمة يدرس في الغالب علاقات ثنائية، أي علاقات بين عنصرين فحسب سواء أكان هذان العنصران كاتبين أو كتّابين أو طائفتين من الكتب أو الكتّاب أم أدبين كاملين وسواء أكانت هذه العلاقات تتصل بمادة الأثر الفني أم بصورته"[2]، ويؤكد هذا توجه فان تيغم نحو الطرح الذي ينتقد مبدئيا طروحات المدرسة الفرنسية القائمة على العلاقات التاريخية.

أسباب ظهور الأدب المقارن:

ظهور مناداة لرؤية عالمية في مجال الثقافة و الأدب عند بعض المفكرين الأوروبيين أمثال فولتير وروسو و ديدرو و غوتة ، و ظهور اعتقاد بأن الآداب

[1]- ماريوس فرانسوا غويار، الأدب المقارن، تر: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 1988، ص 15.

[2]- عز الدين المناصرة، مقدمة في نظرية المقارنة، ص 9.

الأوروبية هي حصيلة تفاعلات مشتركة عميقة ، و أن الإبداع الأدبي هو تجربة مشتركة غير مقصورة على أدب دون آخر.

2-تطور الاتجاه الرومانسي في الأدب و طرحه لتصور يقضي بكون الأدب هو اتجاه إنساني شامل يعنى بالتجربة الإنسانية أينما كانت ، و يتجاوز حدود الأمم و اللغات

3-اتساع الأفق الأدبي عند الكثير من الباحثين نتيجة لازدياد الصلات الثقافية بين الشعوب الأوروبية و اطلاعهم و معرفتهم بأدب بعضهم البعض ، إما عن طريق الترجمات أو عن طريق المعرفة المباشرة للغات الأجنبية.

4-نشأة فروع معرفية جديدة تعتمد على المقارنة مثل : علم الميثولوجية المقارن، و علم التشريع المقارن، و علم اللغة المقارن.

8-المطالبة الملحة للعديد من الباحثين الأدبيين ، و على رأسهم الفرنسي (إدغار كينيه) Edgar Quienet بضرورة إيجاد علم أدبي مقارن.